تفسير أبي الحسن الحرالي المراكشي

نظرية ومنهج في التفسير الصوفي

الدكتور: عبد الرحيم مرزوق*

تمهيد في معنى الفهم وموانعه، والفرق بينه وبين التأويل عند الإمام الحرالي

لم يشأ أبو الحسن الحرالي المراكشي(ت:٦٣٨هـ)[١]، أن يسمِّي ما يقدمه من تبيين لآيات القرآن تفسيراً، ولا تأويلاً؛ وإنما سماه فهماً. فالتفسير والتأويل، في نظره، حجب تمنع الفهم، ذلك الفهم الذي يؤتيه الله من زكت نفسه، وصفا قلبه بترقيه في مقامات الإيمان تدرجاً، من الحس إلى النفس، إلى الروح، إلى الأمر، إلى السر؛ أو بتعبير واضح تدرجاً من الإيمان إلى الإسلام إلى الإحسان؛ حيث يغيب العبد «**عن نفسه ويرى ربه**»[٢]. فلا يسمع آنذاك في قراءته إلا الله تعالى، فتنكشف له أسرار الكتاب المنزل.

إن استنباط المعنى من العبارة القرآنية له عند الإمام الحرالي طرق ثلاث: الإشارة، والتصريح المتفرع إلى تفصيل أو حكم، فسورة البقرة -مثلاً- «**تنتظم جوامعها خلال تفاصيلها انتظاماً عجيباً، يليح المعنى لأهل الفهم، ويفصله لأهل العلم، ويحكم به على أهل الحكم**»[٣].

وما يليح من العبارة القرآنية هو ما كان الإمام الحرالي يعنى بتبينه وتبيينه. وقد وضع لذلك جملة من القواعد والقوانين تختص بالتطرق إلى فهم القرآن. وهي قوانين انتهى إليها بعد مجاهدة طويلة للنفس، وزهد «**كان فيه حقيقياً بالباطن والظاهر**»[٤].

* أستاذ جامعي من المغرب.

فما الفهم الذي أناط به الإمام الحرالي وظيفة بيان خبيئات معاني القرآن وأسراره؟ وما علاقته بالتفسير والتأويل؟ وهل كان -كما قيل- عبارة عن احتمالات لا يحتملها الخط العربي أصلاً؟ وما أسس نظريته في الفهم ومجالاتها وتطبيقاتها؟ وكيف يصل المفسِّر إلى هذا الفهم؟ هذه الأسئلة وغيرها نحاول، في هذه الدراسة الموجزة، أن نجيب عنها؛ لعلنا نتبيَّن منحى الإمام الحرالي المغربي في فهم القرآن الكريم تنظيراً وتطبيقاً.

١- معنى الفهم في تفسير الإمام الحرالي

الظاهر أن أبا الحسن الحرالي استمد مصطلح «الفهم» من أبي حامد الغزالي(ت: ٥٠٥هـ)، الذي كان هو الآخر يميّز بين الفهم والتفسير[٥]. ويمكن تحديد معنى الفهم عند الإمام الحرالي، كما يظهر من النصوص المتبقية من تفسيره، بأنه إدراك المعاني القرآنية المستترة، التي لا تبوح بها اللغة في دلالاتها الوضعية. إنه انكشاف المعنى الأعمق بما يتسع له إيحاء العبارة وإشاراتها مما ينهل من الغيب على قلب العارف «**بأيد من الله وروحٍ منه**»[٦].

وإن الله سبحانه يقيم من أمره ما شاء، ويزيد في الخلق ما يشاء، وإن أتم الزيادات وأكملها، من وهبه الله فهما في كلامه، ووعياً في كتابه، وتبصرة في الفرقان وإحاطةً بما شاء من إحاطة علم القرآن[٧].

الفهم في تفسير الإمام الحرالي محله القلب المشرق بنور العناية والمحبة الإلهية «**وعلى قدر المحبة والصفاء وصفاء الذكر ووجوب القرب يقع التفاوت في الفهم**»، كما قال الخراز[٨].

٢- موانع الفهم

وحجب فهم القرآن كثيرة منها: الركون إلى زينة الحياة الدنيا، والانغماس في الملذات، واشتغال القلب وذهوله عن الخطاب، والالتباس بالبدع والأهواء، كل أولئك موانع الفهم والتدبر[٩]، ويرى أبو الحسن الحرالي أن ثمة موانع أخر تشمل ما يبديه المفسرون من تفسيرات وتأويلات وآراء عقلية. جميع ذلك حجب تحول دون فهم القرآن. فلا يفهمه حق الفهم سوى من تخلص من ذلك كله. يقول رحمه الله: «**قوم منعهم من فهمه وتفسيره وشغلهم بما حضر من دنياهم؛ وقوم منعهم من فهمه تأويله، وقوم منعهم من فهمه سابق**

آراء عقلية انتحلوها، ومذاهب عقلية تمذهبوا بها، فإذا سمعوا تأولوه لما عندهم، فيحاولون أن يتبعهم القرآن، لا أن يكونوا هم يتبعونه، وإنما يفهمه من تفرّغ من كل ما سواه»(١٠).

هؤلاء الأقوام كلهم محجوبون بمذاهبهم العقلية، مردودون إلى ما قدر من علومهم. وليس للعلوم مزية بيان خبيئات المعاني القرآنية؛ وذلك لقصورها عن الإحاطة بخطاب القرآن، «**فإن للقرآن علواً من الخطاب يعلو على قوانين العلوم علو كلام الله على كلام خلقه**»(١١). إن لغة القرآن أسمى، في نظر أبي الحسن، من أن تدرك حقائق دلالاتها بواسطة قواعد العلم فقط، كما ظن المفسرون والمأولون الذين جعلوا منها لغة دالة كدلالة لغة البشر. إن فقه إشارات القرآن، أو بتعبير الحرالي فقه إفهام القرآن، إنما طريقه الفهم الخالص من شوائب التفسير والتأويل والأحكام العقلية المسبقة.

وأغلب الظن أن مقصود أبي الحسن من كون التفسير حجاباً، هو: أن يعتقد القارئ أنه «**لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي، وأن من فسّر القرآن برأيه، فقد تبوأ مقعده من النار. فهذا أيضاً من الحجب العظيمة**»(١٢).

٣- الفهم وتأويل المتشابه

ولا ينبغي أن يفهم من نظر الإمام الحرالي إلى التفسير كونه حجاباً أنه كان يطرح كل فهم يُعتمد فيه على العقل والحس، فإن شرط منال قراءة القرآن عنده «**اهتمام القلب بتفهمه، وإقبال الحس على استماعه وتدبره**»(١٣). ولكن، كما يقرر: «**عيان القلب أتم من العلم المأخوذ عن علم بالفكر**»(١٤).

إن أحكام القرآن وحدوده في منطوق تلاوته، وليس في خفي إفهامه، ثمة فرق بين الفهم والتأويل. التأويل مجاله ظاهر التراكيب لاستخراج المعاني المحمولة على الحذف والتقدير، أو التمثيل والمجاز. والفهم يتجاوز «**ظاهر الخطاب إلى ما وراء ذلك من بطانه، فإن لكل آية ظهراً وبطناً**»(١٥). وهذا يوجب فهم القرآن على حده ووجهه الذي يناله الكشف، ويقصر عنه العقل والحس. وشتان بين ما يُنال بتفهم العقل أو روح العقل كما يسميه الحرالي(١٦)، وبين ما يدرك بتأمل ظاهر العقل. فما يُقذَف في القلب فهمٌ، وما يستخرج العقل علمٌ. وكلاهما في الإدراك متفاوت؛ «**لأن العلم من العقل بمنزلة النفس، والفهم من**

العقل بمنزلة الروح، فللفهم مدرك لا يناله العلم، كما أن للروح معتلى لا تصل إليه النفس، لتوجه النفس إلى ظاهر الشهود، ووجهة الروح إلى على الوجود»(١٧).

من هذا الميز بين ما ينال بتفهم روح العقل(القلب)، وبين ما يدرك بظاهر العقل، يرى الإمام الحرالي أن تأويل الآيات المتشابهات، كما هو في متناول المفسرين والمتكلمين، إنما هو ضرب من التحكم، واتباع للهوى؛ إذ معانيها مغلقة لا تدرك بالعقل لقصوره، وسبيل معرفتها صفاء الإيقان بحسب العناية والمحبة.

وهكذا يرتبط فهم المتشابهات عند الحرالي بمنهجه الصوفي في التفسير، فالآيات المحكمات واضحات للفهم والعقل. وأما المتشابهات، فلا يدركها فهم أو عقل، «**أنزلها الله تعالى ليتعرف الخلق بما جبلهم عليه، مما لو لم يتعرف لهم به لم يعرفوه**»(١٨). وذلك «**أن الله سبحانه تعرف لعباده في الأفعال والآثار في الآفاق، وفي أنفسهم تعليماً، وتعرف الخاصة بالأوصاف العليا والأسماء الحسنى، مما يمكنهم اعتباره تعجيزاً، فجاوزوا حدود التعلم بالإعلام إلى عجز الإدراك، فعرفوا أن لا معرفة لهم. وذلك حد العرفان**»(١٩).

ويقيم الإمام الحرالي بفهمه الفطن تناظراً بين ما أقدر الله تعالى عليه الخلق من إيمان وكفر ونفاق، كما جاء في صدر سورة البقرة، وبين ما أنزله تعالى في الكتاب من الإحكام والاشتباه. يقول رحمه الله: «**ولما بين في أمر الخلق أن منهم من أناسه بين الخلقين، بيَّن في الكتاب أن منه ما أنزله على الإحكام، ومنه ما أنزله على الاشتباه، وفي إفهامه ما أنزله على الافتتان والإضلال، فكان المحكم في الكتاب بمنزلة فطرة الإيمان، والمتشابه بمنزلة نوس النفاق، والافتتان والإضلال بمنزلة ختم الكفار**»(٢٠).

المحكم في الكتاب مجانس لفطرة الإيمان؛ لذا «**بان للعبد فيه خطاب ربه من جهة أحوال قلبه، وأخلاق نفسه، وأعمال بدنه فيما بينه وبين ربه، من غير التفات لغرض النفس في عاجل الدنيا ولا لأملها**»(٢١).

ويتأكد تحلي العبد ببيان المحكم والعمل به، بحسب براءته من التعرض لنظيره المتشابه(٢٢). الذي لا يتبين للعبد فيه خطاب ربه من جهة قصور عقله عن إدراكه، ووجوب تسبيح ربه عن تمثل عبده إلى أن يؤيده الله بتأييده(٢٣).

ولعل الإمام الحرالي لم يَعْدُ الحق حين جعل المتشابه بمنزلة نوس النفاق، وباباً ينبعث منه الافتتان والإضلال؛ إذ «**اتباع المتشابه زيغ، لقصور العقل والفهم عن نيله ووجوب**

الاقتصار على الإيمان به من غير موازنة بين ما خاطب الله تعالى به عباده للتعرف وبين ما خلقه للعبد للاعتبار»(٢٤) لذلك «**لا يصح الترامي إلى شيء من الخوض في المتشابه لأحد من أهل العلم والإيمان هل الدرجات؛ لأن الله سبحانه وتعالى جبل الخلق وفطرهم على إدراك حظ من أنفسهم، ومن أحوالهم وأوقفهم عن إدراك ما هو راجع إليه، فأمر الله وتجلياته لا ينال إلا بعناية منه، يزج العبد زجة يقطع بها الحجب الظلمانية والنورانية التي فيها مواقف العلماء**»(٢٥).

وكل من يحاول إدراك حقائق الآيات المتشابهات «**بدليل أو فكر أو تأويل، حرم اليقين بعلي الأمر والتحقيق في علم الخلق، وأخذ بما أضاع من محكم ذلك المتشابه، حين اشتغل عما يعنيه من حال نفسه، بما لا يعنيه من أمر ربه**»(٢٦).

فليس من معرفة المتشابه من الآي «**إلا أحد لسانين: لسان وقفة عند حد الإيمان للراسخين في العلم، المشتغلين بالاتصاف بالتذلل والتواضع والتقوى، والبر الذي أمر – صلى الله عليه وسلم – أن يُتَّبع فيه حتى ينتهي العبد إلى أن يحبه الله، فيرفع عنه عجز الوقفة عن المتشابه، وينفذه من حجاب النورانية، فلا يشكل عليه دقيق، ولا يعييه خفي بما أحبه الله. وما بين ذلك من خوض دون إنفاذ هذه العناية، فنقص عن حد رتبة الإيمان والرسوخ في العلم، فكل خائض فيه ناقص، من حيث يحب أن يزيد؛ فهو إما عجز إيماني من حيث الفطر الخلقي، وإما تحقق إيقاني توجبه العناية والمحبة**»(٢٧).

من الواضح إذن أن ثمة، في تصور الحرالي، مواقف ثلاثة من المتشابه: متوقفون عن الخوض فيه، قانعون بما أفاد من إفصاح، ومفتوح عليهم بما هم فيه من صفاء الإيقان بحسب العناية والمحبة. وما وراء ذلك متبعون لحرف المتشابه و«**هم المتفرقون في الملل، وهم أهل البدع والأهواء، المشتغلون بما لا يعنيهم**»(٢٨).

خلاصة نظرية الإمام الحرالي في فهم القرآن

يروم الإمام الحرالي أن يقنن للفهم، كما أن للنحو والفقه قوانين. وإذا كانت قوانين تفسير القرآن، كما يرى، في علم النحو والأدب، وقوانين تأويله في علم الإيمان، فإن قوانين التطرق إلى فهمه في قلوب عباد: «**اختصهم الله بالفهم، وآثرهم بإحاطة من العلم، تأمن بهم القرون، وتنجلي بهم ظلم الفتون، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة**»(٢٩).

وليست قوانين الفهم غامضة، كما قد يتبادر؛ بل هي أصول محددة سطَّرها الإمام

الحرالي في رسائله الثلاثة: «**مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل**» و«**عروة المفتاح**» و«**التوشية والتوفية**». وهي الأصول التي تُكوِّن نظريته في الفهم والتي تتلخص في وجوب توافر أوصاف وشرائط في المتلقي أو القارئ، أعظمها وأنفسها تعرُّفه على المتكلم بالخطاب، وهو الله (جل وعز). وإدراك أن خطابه تعالى يجمع بين نبأي الإفصاح والإفهام.

لقد تأمل أبو الحسن في القرآن فوجده يتضمن دلالة الكلام على مرسله، وهو الله جل وعز، ودلالة الكلام على ذاته، ودلالة الكلام على متلقيه. ورغم إسهابه في الحديث عن المتلقي، كما سيأتي بيانه، فإن نظره كان مغايراً لإشكال التأويل السائد اليوم في **التأويلية** (الهرمنيوطيقا)، والمتمثل في اختلاف أقطابها في تحديد العلاقة بين الكاتب والنص والقارئ، **لمن تعطى الأولوية في الفهم: للنص أم لقصد الكاتب أم للقارئ**؟ الحرالي الساعي للمعرفة الإلهية -كغيره من المفسرين الصوفيين- لا يجد هذا الإشكال أمام النص القرآني؛ لأنه يمثِّل عنده كلام الله، وليس كأي كلام ينفصل فيه الكلام عن المتكلم، فيتوقف هذا تاريخياً ويتطور ذاك، بل إن كلام الله عند هذا الصوفي، صفة له قديمة أبدية، هي نفس ذاته لا تنفصل عنه، فهو تعالى لم يزل متكلماً بما أسماه «القرآن» ولا يزال؛ ومن ثم يتوحد عند هذا الصوفي الكلام والمتكلم، فلا يتعدد البحث لديه، وإنما يسعى في تجربته إلى تعميق التلقي الذاتي للكلام الإلهي عن طريق طول التلاوة المتدبرة، على أنها وسيلة التقرب إلى المتكلم بالسماع منه والفهم عنه(٣٠).

من القرآن ذاته تتحدد عند المتلقي في نظر الحرالي، طريق فهم القرآن ذلك أن «**من تفطَّن إلى رتب الخطاب في القرآن، بحسب أسماء الله، وأطوار الخلق، وتنزلات الأمر، ورتب تنامي القلوب في الرجوع إلى الله، ورتب الأخلاق والأعمال، وما يقابل ذلك من دركات البعد والبغض والطرد واللعن، فتح الله له باباً إلى الفهم، يجد به يقين تجربة إبانته، ووضوح صدق إنبائه عن كنه الذوات ورتب التنزلات، حتى أن خطاب الإقبال بخطاب الإعراض، والغيبة بالحضور، والاختصاص بالتعميم**»(٣١).

أولاً- من الكلام إلى المتكلم: تنزلات الخطاب بحسب الأسماء والصفات، وتكرارها بالإظهار والإضمار

ينبه أبو الحسن الحرالي إلى ضرورة التعرف إلى المتكلم بخطاب القرآن، وهو الله جل وعز، وذلك بالإحاطة بمعاني أسمائه الحسنى وصفاته العليا، كما وردت في نظم القرآن، فإن ذلك مما يفتح فهما يستبان به نص الخطاب إفهاماً وإفصاحاً.

أ- رُتَبُ الخطاب في القرآن بحسب الأسماء الحسنى

ولمواقع الأسماء الحسنى في نظم القرآن معانٍ سامية، ومن لم يتفطن لهذه المواقع لم يبن له خطاب الله، من خطاب الرحمن، من خطاب الملك الديان. «**وذلك لسر من أسرار العلم بمواقع معاني الأسماء الحسنى في ما يناسبها من ضروب الخطاب والأحوال والأعمال، وهو من أشرف العلم الذي يفهم به خطاب القرآن، حتى يضاف لكل اسم ما هو أعلق في معناه وأولى به، وإن كانت الأسماء كلها ترجع معاني بعضها لبعض**»(٣٢).

ورتب الأسماء في نظم القرآن، كما بينها الحرالي(٣٣) هي:

– ما تُرَى آياته في الأنفس والآفاق، وهو اسمه «**الملك**» وهو أظهر الأسماء.

– الأسماء المقيمة لأمر الحكم والقضاء والجزاء، نحو: «**العزيز الحكيم**»، وهو المختتم به آيات الأحكام.

– الأسماء المتضمنة معنى الرحمة المنبئة عن الصفح والمغفرة المختتم بها آيات الرحمة نحو ﴿**وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾(٣٤).

– ما توجد آياته وجدانا في النفس، وهو اسم «**الرب**».

– ما يتفصل إليه من الأسماء الواردة في ختم الإحاطات، نحو: «**السميع العليم**».

فمن تفطن لهذه الرتب –يقول أبو الحسن– استوضح من تفصيل بيان القرآن الختم واستنبأ من الختم التفصيل، كما في الآية الكريمة ﴿**وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾(٣٥). «**ففي إشارة قوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إعلام بأن الطلاق لابد له من ظاهر لفظ يقع مسموعاً. وفي «عليم» تهديد بما يقع في الأنفس البواطن من المضارة والمشاجرة بين الأزواج في أمور لا تأخذها الأحكام، ولا يمكن أن يصل إلى علمها الحكام، فَجَعَلَهم أمناء على أنفسهم في ما بطن وظهر**»(٣٦).

٢- تكرار الأسماء بالإظهار والإضمار في خطاب القرآن

ولتكرار الأسماء الحسنى بالإظهار والإضمار في خطاب القرآن بيان متين الإفهام، وله حالتان(٣٧):

الأولى: تقدم الإظهار، ويكون البيان عن اختصاص نحو: ﴿**الله الصمد**﴾(٣٨)، وهو خطاب المؤمنين بآيات الآفاق.

الثانية: يتقدم فيه الإضمار، ويكون البيان عن إحاطة نحو: ﴿**قل هو الله أحد**﴾[٣٩]، وهو خطاب المؤمنين بآيات الأنفس.

وقد يتقدم الإظهار، ويتأخر الإضمار أو العكس، وذلك إذا أحاط البيان بعد اختصاص، استؤنف له إحاطة باستئناف إظهار محيط أو بإضمار، أو بجمع المضمر والمظهر. نحو ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[٤٠]. فقد أظهر الاسم في ﴿**إن الله بما تعملون بصير**﴾ «**في موضع الإضمار، إشعاراً بالاستئناف للخير، ليكون ختماً جامعاً؛ لأنه لو عاد على خصوص هذا الخطاب لكان «إنه»؛ وذلك لأن تجديد الإظهار يقع بمعنى رد ختم الخطاب على إحاطة جملته**»[٤١].

٣- مجاري إضافة الربوبية ونعت الألوهية في خطاب القرآن[٤٢]

وللربوبية في خطاب القرآن بيان في كل رتبة بحسب ما أظهرته آية مربوبة: «**من عرف نفسه عرف ربه**»[٤٣] ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾[٤٤]. ﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ...**﴾[٤٥]، ﴿**اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ**﴾[٤٦]، ﴿**أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾(٤٧). وكما يتضح لأولي التعرف رتب البيان بحسب إضافة اسم الرب، فكذلك يتحقق لأولي الفهم وجوه إحاطات البيان بحسب النعوت والتبيان في اسم الله غيباً في مستجلى الآيات للمؤمن، وعيناً لكامل التقوى الموقن، وجمعاً وإحاطة عن بادي الدوام للمتحقق الواجد.

والتفطن لرتب البيان، بحسب الحرالي، في موارد هذا النحو من الخطاب في القرآن من مفاتيح الفهم، وبوادي مزيد العلم.

وصفوة القول: أن يتعرف المتلقي من القرآن على الله -جل جلاله- بالإحاطة بمعاني أسمائه الحسنى وصفاته العليا، بل أن يعيش في ظلال القرآن يسمع الله، فذلك، في نظر الحرالي، ضروري لإدراك إفهام الخطاب.

ثانياً- خطاب القرآن: الدلالة بين نبأي الإفصاح والإفهام

ومن أجل قوانين فهم القرآن كذلك عند أبي الحسن الحرالي إدراك أن خطابه يجمع بين نبأي الإفصاح والإفهام، «**فإفهامه إسراره للقلوب الفهمة، وإفصاحه إعلانه للأسماع الواعية**»[٤٨].

إن ثمة معانٍ عميقة لا متناهية كامنة في النص القرآني تتجاوز الإفصاح، ويتضمنها الإفهام، «**لما قد عُلِم من أن إفهام القرآن أضعاف إفصاحه، بما لا يكاد ينتهي عده؛ فلذلك يكثر فيه الخطاب عطفاً، أي على غير مذكور، ليكون الإفصاح أبداً مشعراً بإفهامٍ يناله من وُهِب روح العقل من الفهم، كما ينال فقه الإفصاح من وهبه الله نفس العقل الذي هو العلم**»(٤٩).

إفصاح القرآن إشارات ولطائف وأسرار يلمحها «**الذين لهم لب العقل، الذي للراسخين في العلم ظاهره**»(٥٠). وهم المدركون لإفصاح الخطاب.

ففي قوله –جل وعز–: ﴿ **فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الخَـاسِرُونَ** ﴾، من الآية الكريمة: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَـابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِـهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الخَـاسِرُونَ**﴾(٥١)، فلبعده بالتقدم –بحسب الإمام الحرالي– «**كرَّره تعالى إظهاراً لمقصد التئام آخر الخطاب بأوله، وليتخذ هذا الإفصاح والتعليم أصلاً لما يمكن أن يَرِد من نحوه في سائر القرآن، حتى كان الخطاب إذا انتهى إلى غاية خاتمة، يجب أن يلحظ القلب بداية تلك الغاية، فيتلوها ليكون في تلاوته جامعاً لطرفي البناء، وفي تفهمه جامعاً لمعاني طرفي المعنى**»(٥٢).

يبدأ الفهم عند الإمام الحرالي بإدراك ظواهر القرآن إلى أقصى ما تحتمله هذه الظواهر من احتمالات مؤيدة، ثم يتجاوزها إلى ماوراء ذلك من إفهام... وتلك قمة الفهم الجامع بين مباني الألفاظ تلاوةً، وبين عميق معانيها تدبراً وتفهماً.

وفي الآية الكريمة: ﴿ **شَـهِدَ اللّـهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَـآئِمَـاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَـزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾(٥٣)، أفرد القيام، فاندرج من ذكر من الملائكة وأولي العلم في هذا القيام إفهاماً، كما اندرجوا في الشهادة إفصاحاً، فكان في إشعاره أن الملائكة وأولي العلم لا يقاد منهم فيما يجريه الله سبحانه وتعالى على أيديهم؛ لأن أمرهم قائم بالقسط من الله(٥٤).

وهكذا، فما يقع فيه الإفهام في متقابلات ظاهرةٍ يقع البيان عن أحدها إفصاحاً ويلازمه الآخر إفهاماً، فيملأ القرآن قلبه بإفهامه ويملأ سمعه بإفصاحه(٥٥).

من الواضح أن الإفصاح والإفهام في اصطلاح أبي الحسن الحرالي يقابلهما الظاهر (العبارة) والباطن (الإشارة) كما يفهمها المفسرون الصوفيون المعتدلون من أهل السنة والشيعة، على اعتبار أن «**الظاهر هو ظاهر التلاوة، والباطن هو الفهم عن الله لمراده؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(٥٦)، والمعنى لا يفهمون عن الله**

مراده؛ من الخطاب، ولم يُرِد أنهم لا يفهمون نفس الكلام، كيف وهو منزل بلسانهم؟ ولكن لم يحظوا بفهم مراد الله من الكلام وكأن هذا هو معنى ما رُوِي عن علي أنه سئل: هل عندكم كتاب؟ فقال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة»(٥٧).

ولا يبعد أن يكون الفهم الذي قصده سيدنا علي كرم الله وجهه هو ما كان يحاول أبو الحسن قربانه والتطلع إليه؛ إذ هو الباب إلى فهم الكتاب. قال رحمه الله تعالى: «**وقد علم الأولون والآخرون أن فهم كتاب الله منحصر إلى علم علي(ع). ومن جَهِل ذلك فقد ضل عن الباب الذي من ورائه يرفع الله عن القلوب الحجاب حتى يتحقق اليقين الذي لا يتغير بكشف الغطاء**»(٥٨).

ثالثاً- المتلقي

يصنف الإمام الحرالي المتلقين لخطاب القرآن إلى أصناف أربعة:

- متذكر ينتهي إلى إيقان.
- وراسخ في العلم يقف عند حد إيقان.
- ومتأول يركن إلى لبس بدعة.
- وفاتن يتبع هوى(٥٩).

المتلقي الذي يهتم به الحرالي ضمن نظريته في الفهم هو المتذكر الذي انتهى إلى إيقان، أو هو الذي يريد أن يسلك الطريق، طريق أهل التحقيق بالسلوك الموصل إلى ذلك الإيقان. العلاقة بين المتلقي وخطاب القرآن تتجاوز في حقيقتها -في منظور أبي الحسن- علاقة القارئ بما يتلقى، إلى علاقة القارئ بما به يترقى في درجات الإيمان، الموصلة إلى صفاء الإيقان، الذي به ينال فهم الخطاب إفصاحاً وإفهاماً؛ ولذلك كله جعل الإمام الحرالي أول شرائط المتلقي أو القارئ أو المفسر لإدراك إفهام القرآن التزكية تطهراً وتحققاً وتخلقاً؛ «**لأن الله سبحانه أباح علم الآيات بغير شرط، وجَعَل من دون تعلم الكتاب والحكمة، التزكية بالزهد والوجهة إلى الله ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾**»(٦٠).

وتشكل التزكية أحد الأصول الرئيسية المكوِّنة لنظرية الحرالي في الفهم «**وهي نماء النفس بما هو لها بمنزلة الغذاء للجسم**»(٦١). ونماؤها هو تدرجها في الترقي إلى كمالات الحكمة المؤتاة المنزلة في الكتاب الجامع. يشير الإمام الحرالي إلى طريق الترقي عند قوله

تعالى: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ** ﴾[٦٢]. فيذكر أن «**من رجع حسه إلى نفسه، تنشأت له أوصاف الفضائل النفسانية، وترقى عما في محسوسه من المهاوي الشهوانية. ومن تخلص من نفسه إلى روحه تحسس بالوصلة الرحمانية والمحبة الربانية. كذلك من ترقى من روحه إلى أمره تحقق بالإحاطة الوحدانية. ومن استبطن من أمره إلى سره اجتمع إلى الأولية الفردانية**»[٦٣].

إنها مراحل ومنازل يطويها المتلقي الذي يرغب في إدراك إفهام القرآن، ولكل مرحلة حال ومقام. من الحس إلى النفس إلى الروح إلى الأمر إلى السر؛ أي الشهود، عندئذ – وعندئذ فقط– تنكشف المعارف من سجف العبارات.

والجدير بالذكر ههنا، أن الإمام الحرالي يستمد منهج التزكية من القرآن نفسه، لا من مصدر أجنبي، يقول عند الآية الكريمة: ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ** ﴾[٦٤].

«**أنبأهم بأن هذا التنزيل لأنفسهم بمنزلة الغذاء للأبدان، فكما تتنامى أجسادهم بماء المزن، فكذلك تتنامى بأحكام الكتاب وتلاوة الآيات وذلك زكاؤها ونماؤها، لتتأكد فيهم رغبتهم؛ لأن للمتغذي رغبة في الغذاء إذا تحققه، فمن علم أن التزام الأحكام غذاء لنفسه حرص عليها، ومتى نمت النفس وزكت قَوِيت على ما شأنها أن تناله قواها، كما أن البدن إذا قوي بالغذاء تمكن مما شأنه عمله**»[٦٥].

على قدر التزكية تتنامى نفس المتلقي أو القارئ بأحكام القرآن وآدابه ترقياً في درجات الإيمان، وإقبالاً على روح الخطاب، وفق أسنان قلبية، تنبئ عن مدى استشعاره مواقع آي القرآن من نفسه. ولهذا كانت نظرية الفهم عند الحرالي تعنى بالمتلقي من نواحٍ أربع، كما أوضحها البيان القرآني.

الناحية الأولى: تطور الإنسان بترقيه في درجات الإيمان أو ترديه في دركات الكفر.

الناحية الثانية: إضافة الآيات القرآنية إلى قلب المتلقي حسب أسنان قلبية معلومة مشهودة.

الناحية الثالثة: لكل قلب خطاب إقبال أو خطاب إعراض على حسب درجة علاقته بنص الخطاب.

الناحية الرابعة: مدى إحساس المتلقي وتوحده علماً وعملاً وحالاً بنص الخطاب.

وفي ما يلي بيان هذه النواحي الأربع:

الناحية الأولى: رتب بيانِ خطاب القرآن عن تطور الإنسان، بترقيه في درجات الإيمان أو ترديه في دركات الكفر، ويرد بيان القرآن لكل إنسان بحسب كنه ذاته، واختصاص رتبة قربه ومحل بعده(٦٦)؛ أي قربه من الله تعالى وبعده منه: «**ومعلوم أن قرب الله وبعد المخلوق منه ليس بعد مسافة ولا قرب مسافة، فالذي يمكن إلاحته من معنى القرب، إن من سمع في ما يخاطب به، خطاب ربه، فهو قريب ممن كان ذلك الخطاب منه، ومن كان إنما يسمع الخطاب ممن واجهه بالخطاب في حسه ومحسوسه فسمعه من دون ربه، كان بعيداً بحسب تلك الواسطة، من بعد دون بعد إلى أبعد البعد**»(٦٧).

ولذلك تفاوت خطاب القرآن بحسب كنه ذات الإنسان، وقربه أو بعده من الخطاب سماعاً، ومحاضرة. فخطاب «**الناس**»، وخطاب «**الذين آمنوا**»، وخطاب «**المؤمنين**»، وخطاب «**المؤمنين حقاً**»، وخطاب «**المحسنين**»، وخطاب «**الموقنين**»؛ كل خطاب من هذه الخطابات يقع على سن من أسنان القلوب؛ «**وليس يقع على عموم يشمل جميع الأسنان القلبية، فتوهم ذلك من أقفال القلوب التي تمنع تدبر القرآن؛ لأن خطاب القرآن يتوجه لكل أولي سن على حسب سن قلوبه، لا يصلح خطاب كل سن إلا له، يتقاصر عنه مَنْ دونه، ولا يحتاج إليه مَنْ فوقه، وهي أسنان متعددة: سن الإنسان، ثم سن الناس، ثم سن الذين آمنوا، ثم سن الذين يؤمنون، ثم سن المؤمنين، ثم سن المؤمنين حقاً، ثم سن المحسنين، هذه أسنان سبعة خطاباتها مترتبة بعضها فوق بعض، ومن وراء ذلك أسنان فوقها، من سن الموقنين، وما وراء ذلك إلى أحوال أثناء هذه الأسنان، من حال الذين أسلموا والمسلمين ومن يوصف بالعقل والذكر والفكر والسماع، وغير ذلك من الأوصاف التي تلازم تلك الأسنان في رتب متراقية لا يشمل أدناها أعلاها، ولا ينهض أدناها لرتبة خطاب أعلاها، إلى ما وراء ذلك من خصوص خطاب النبي(ص) فيه، بما لا يليق إلا به، وبمن هو منه من آله**»(٦٨).

ويمكن بيان أحوال ومقامات تطور الإنسان صعوداً في درجات الإيمان أو نزولاً إلى دركات الكفر في الجدول التالي:(٦٩)

رتب ترقي الإنسان في درجات الإيمان أو العكس	أحوال أصحاب هذه الرتب قرباً سماعاً أو محاضرة أو بعداً عن الخطاب
الموقنون إلى ما وراء ذلك	غيب
المحسنون	نفس حال رتبة المؤمنين حقاً
المؤمنون حقاً	هي مرتبة تمام سن المؤمنين
المؤمنون	أدنى قرباً من الله تعالى؛ ولذلك لم يرد في القرآن خطابهم بياء البعد، فهم الذين تحققوا بحقيقة الإيمان، فصار الإيمان وصفاً ثابتاً في قلوبهم.
الذين يؤمنون	هم في أول حد القرب
الذين آمنوا	المرتبة التي تتحقق فيها للناس قبول وسماع وإيمان لغائب الأمر والخلق، ولكنهم يتزلزلون عنه كثيراً عند عارضة نيل وخادعة رفعة؛ ولذلك هم المنادون والمنهيون والمأمورون في جميع القرآن.
الناس	سموا الناس لنوسهم، أي ترددهم بين سماع الزجر من ربهم، وغلبة أهوائهم عليهم، فيرد لذلك نبأهم بذم أكثرهم في خطاب القرآن ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾، ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** ﴾.
الإنسان	هو حيث أنس بنفسه وغيره، ونسي عهد ربه، فرتبته أردى الأحوال؛ لذا يرد نبؤه بالذم في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ **قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** ﴾.

هذه الرتب وخاص خطابها أشد ظهوراً من أطوار الخلق عند أصحاب الأبصار، وعدم التبصرة بها في الأحوال والبيان هي أقفال القلوب المانعة من تدبر القرآن(٧٠).

ومن نماذج ورود خطاب القرآن على حسب أسنان القلوب، ما يجليه الإمام الحرالي عند تفسير الآية الكريمة: ﴿**أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ**﴾(٧١). ففيه «**إشعار بأن الخطاب للذين آمنوا؛ لأن المؤمنين المعروفين بالوصف لا تتبدل أحوالهم من إيمان لكفر لأن أحداً لا يرتد عن دينه بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلبه ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**»(٧٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله لا ينزع العلم انتزاعاً بعد أن أعطاكموه**» **فبذلك يتضح مواقع خطاب القرآن مع المترتبين في أسنان القلوب، بحسب الحظ من الإيمان، والإسلام والإحسان**»(٧٣).

وكان الخطاب في الآية الكريمة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾(٧٤). متوجهاً «**بادئ بدء إلى أدنى الطبقات التي التزمت أمر الدين؛ لأنه لم يكن لهم باعث حب وشوق يبعثهم على فعله، من غير فرض، بخلاف ما فوقهم من رتبة المؤمنين والمحسنين، فإنهم كانوا يفعلون معالم الإسلام من غير إلزام، فكانوا يصومون على قدر ما يجدون من الروح فيه**»(٧٥).

الناحية الثانية:

- رتب الآيات المضافة لأسنان قلوب المتلقين

كثيراً ما تختتم الآيات القرآنية بقوله جل وعز ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ ﴿**...لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون**﴾، ﴿**لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾، ﴿**لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ ونحو ذلك. ومراتب إضافة هذه الآيات للمخاطبين إنما هو وفق ترتبهم في أسنان القلوب بحسب الحظ من الإيمان والإسلام والإحسان.

فالفواصل في هذه الآيات «**تضاف وتتسق لمن اتصف بما به إدراك معناها، ويؤنب عليها من تقاصر عنها، وينفى منالها عن من لم يصل إليها**»(٧٦)؛ فلذلك كانت لوجوه إضافة الآيات لأسنان القلوب مراتب وأطوار، وهي(٧٧):

١- أظهرها آيات الاعتبار البادية لأولي الأبصار، وهي الآيات الواضحات المبثوثة في أرجاء الكون المشهود؛ لأن الخلق كله إنما هو علم للاعتبار منه، لا أنه موجود للاقتناع به.

٢- ما ينال إدراك آيته العقل الأدنى ببداهة نظره كما في الآية الكريمة ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾[٧٨].

٣- ما يحتاج إلى فكر يثيره العقل الأدنى لشغل الحواس بمنفعته عن التفكر في وجه آيته. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[٧٩]،

٤- ما يدرك سمعاً؛ لأن الخلق مرئي والأمر مسموع، وهو ما يُقْبَل بالإيمان. وهذا هو العقل الأعلى، وهو اللب الذي يكون عنه التذكر بالأدنى من الخلق للأعلى من الأمر.

الناحية الثالثة:

- لكل قلبٍ متلقٍ خطاب إقبال أو خطاب إعراض

ينحو خطاب القرآن أحياناً إلى بيان قضية ما، أو إلى أناس بعينهم، ثم يُعرِض عنهم إلى أناس آخرين أو إلى قضية أخرى. هذا الإقبال والإعراض يأتي في سياق القرآن على وفق أحوال قلوب المخاطبين؛ إذ «**لكل سن من أسنان القلوب خطاب إقبال... وربما كان له إباء عن بعض ذلك، فيقع عنه الإعراض بحسب بادي ذلك الإباء، وربما تلافته الرحمة فعاد الإقبال إليه بوجه ما، دون صفاء الإقبال الأول، وربما تناسقت الإقبالات مترتبة، فيعلو البيان والإفهام، بحسب رتبة من توجه إليه الإقبال، ويشتد الادبار بحسب بادي الادبار**»[٨٠].

وأشرف المعاني ما كان الإقبال فيه على النبي(ص)، وعموم المعاني ما كان الإقبال فيه على الأمة، «**لُيخاطَبَ كلٌ على قدر ما قدم لهم من تمهيد موهبة العقل، لتترتب المكتسبة من العلم، على مقدار الموهبة من العقل**»[٨١]. فما كان من القرآن لإصلاح ما بين الخلق وربهم يجيء الخطاب فيه من الله -سبحانه وتعالى- إلى الأمة مواجهة، حتى ينتهي إلى الإعراض عند إباء من يأبى منهم. وما كان لإصلاح ما بين الأمة ونبيها يُجْرِي الله الخطاب فيه على لسانه من حيث توجههم بالمحاورة إليه، فإذا قالوا قولاً يقصدونه به، قال الله -عز وجل-: قل لهم، ولكون القرآن متلواً ثبتت فيه كلمة «قل»[٨٢].

ففي قوله جل وعز ﴿ **وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** ﴾[٨٣]، بقراءة الياء إعراضاً عنهم، وبالتاء إقبالاً عليهم، ففيه إنباء بتماديهم على سوء أحوالهم في رتبتين: في متمادٍ على

سوءٍ هُدِّدَ فيه لما أقبل عليه، وفي متمادٍ على أسوأ منه أوجب في تهديده الإعراض عنه، والإقبال على غيره، ممن لم يصل في السوء والمكايدة إلى ما وصل إليه المُعرَض عنه(٨٤).

ولما أجرى الله سبحانه من الخطاب، في سورة البقرة، عن أهل الكتاب والعرب نبأ ردهم لما أنزل أولاً وآخراً، ونبأ ما افتروه مما لا شبهة في دعواه أعرض بالخطاب عن الجميع، وأقبل به في قوله –جل وعز–: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ**﴾(٨٥)، على النبي(ص)، تسلية له، وتأكيداً لما أعلمه به في أول السورة من أن الأمر مجرى على تقديره وقسمته الخلق: بين مؤمن، وكافر، ومنافق: فأنبأه تعالى أنه ليس مضمون رسالته أن يدعو الخلق إلى غير ما جُبِلوا عليه، وأن مضمون رسالته أن يستظهر خبايا الأفئدة والقلوب على الألسنة والأعمال، فيبشر المهتدي والثابت على هدي سابق وينذر الآبي والمنكر لما سبق إقراره به قبل، فعم بذلك الأولين والآخرين من المبشرين والمنذرين(٨٦).

الناحية الرابعة:

انطباق القرآن على كلية الأمة علماً، وعلى خصوص ذات القارئ السامع عرفاناً يفهم المتلقي –فرداً وأمة– المعنى من خطاب القرآن على قدر علاقته به. فما لم تر الأمة المسلمة نفسها في كتاب ربها، وتعتبر في قراءته بما قصه عليها من أخبار الأمة الخالية، فلن ينفتح لها باب الفهم. وأن يستشعر الفرد المسلم مضامين آي القرآن، ويجد أثرها في نفسه علماً وعملاً وحالاً، فتلك مطابقة بين الذات والنص لازمة أيضاً للفهم، يجد حلاوتها من ترقى في درجات الإيمان الموصلة إلى التخلق بالقرآن.

١– انطباق كلية القرآن على كلية الأمة علماً:

يرى أبو الحسن الحرالي أن جميع ما أنبأ عنه القرآن من آدم(ع) إلى محمد(ص)، من أمر النبوات والرسالات، والخلاف، وأصناف الملوك، والفراعنة، والطغاة، وأصناف الجناة، وجميع ما أصابهم من المثوبات والمثلات، كل أولئك متكرر في هذه الأمة الخاتمة أعداداً بأعداد، وأحوالاً بأحوال، في خير أو شر.

وإن مما «**صد أكثر هذه الأمة عن تفهم القرآن ظنهم أن الذي فيه من قصص الأولين وأخبار المثابين والمعاقبين، من أهل الأديان أجمعين، أن ذلك إنما مقصوده الأخبار والقصص فقط، كلا، وليس كذلك. إن ذلك إنما مقصوده الاعتبار والتنبه بمشاهدة متكررة في هذه**

الأمة، من نظائر جميع أولئك الأعداد وتلك الأحوال والآثار، حتى يسمع السامع جميع القرآن من أوله إلى خاتمته، منطبقاً على هذه الأمة وأيمتها، هداتها وضلاَّلها؛ فحينئذ ينفتح له باب الفهم، ويضيء له نور العلم، وتتجه له حال الخشية، ويرى في أصناف هذه الأمة ما سمع من أحوال القرون الماضية»(٨٧).

٢- انطباق كلية القرآن على خصوص ذات القارئ السامع عرفاناً

وإذا شهد المتلقي المؤمن «**انطباق القرآن على كلية الأمة فكان بذلك عالماً، ينفتح له باب ترق، فيترقى سمعه إلى أن يحد جميع كلية القرآن المنطبق على كلية الأمة منطبقاً على ذاته، في أحوال نفسه وتقلباته، وتصرفات أفعاله وازدحام خواطره، حتى يسمع القرآن منطبقاً عليه، فينتفع بسماع جميعه، ويعتبر بأي آية سمعها منه، فيطلب موقعها في نفسه، فيجدها بوجه ما، رغبة كانت أو رهبة، تقريباً كانت أو تبعيداً، إلى أرفع الغايات، أو إلى أنزل الدركات، فيكون بذلك عارفاً**»(٨٨).

فيسمع حينئذ القرآن «**بلاغاً من الله بغير واسطة بينه وبينه، فعند ذلك يوشك أن يكون ممن يقشعر له جلده ابتداء، ثم يلين له جلده وقلبه انتهاء، وربما يجد من الله سبحانه، نفح رحمة، يفتح له باباً إلى التخلق بالقرآن إسوة بالنبي(ص)، سئلت عائشة(رض)، عن خلق رسول الله(ص)، فقالت: «كان خلقه القرآن»**(٨٩).

وبذلك يندمج القارئ بكليته في القرآن، يحسه من أعماق وجدانه، وينسجم معه بحسه وعقله وقلبه وروحه، فتنفتح له أسراره، ويستشرف آفاقه، بما أوتي من علم وفهم، ويبقى الأمر بعد ذلك لدنيا «**ليس مما في فطر الخلق وجبلاتهم وإقامة حكمتهم، وإنما هو موهبة من الله سبحانه وتعالى بحسب العناية**»(٩٠).

تقوم إذاً نظرية الإمام الحرالي في فهم القرآن الكريم على أصول ثلاثة متلازمة:

أ- التعرف على المتكلم بالخطاب، وهو الله -سبحانه وتعالى-، من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا، كما وردت في نظم القرآن.

ب- إدراك أن خطاب القرآن جامع بين نبأي الإفصاح والإفهام.

ج- التزكية التي تتحول بها نفس المفسر أو القارئ علماً وعملاً وحالاً، عبر مقامات الإيمان الموصلة إلى صفاء الإيقان الذي به يُنَال فهم القرآن إفهاماً وإفصاحاً.

ولكن فهم القرآن لا يتطلب ما تقدم فقط، بل واجب أيضاً على المفسر أو القارئ أن

يحيط بعلوم اللغة وعلوم الشرع، فهي البنى التي يتأسس عليها أي افهام يلوح لأهل الفهم، كما رأينا في نماذج سالفة، وكما سيتضح أكثر عند بيان منهج الحرالي في الفهم، على ضوء النصوص المتبقية من تفسيره.

منهج الإمام الحرالي في فهم القرآن

كانت نظرية الإمام الحرالي في فهم القرآن وتطبيقاتها ثمرة جهاد مضنٍ في تزكية النفس وتصفية القلب، وإحساس مرهف بنص الخطاب. وكان من مقتضيات ذلك كله حصول معانٍ إلهامية، وفهوم كشفية، وإشارات ذوقية؛ ولذلك كان منهجه في الفهم منهجاً مركزاً حول بيان إفهام الخطاب المستنبط من إفصاحه، وهو منهج ناشئ في بيانه ذاك من التأمل في نظم القرآن ونسقه، واعتبار إيحاء عباراته بتتبع اشتقاق ألفاظه واستعمالاته اللغوية، وأسباب تنزلاته، وتلمس دلائله من بيان الرسول الأكرم(ص)، ومما جادت قرائح «**أيمة العلماء الولجين في مدينة العلم المحمدي من بابه العلوي**»[٩١].

الكشف وسيلة كبرى من وسائل الفهم

ويعد الكشف أو الإلهام من أصول منهج الحرالي الرئيسة في الفهم؛ فعيان القلب أتم عنده –كما تقدم– من العلم المأخوذ عن علم بالفكر. إن إدراك معاني الألفاظ المختصة بغيب عالم الملكوت يرجع، في نظر الحرالي، إلى العناية والمحبة الإلهية. «**فأمر الله وتجلياته لا ينال إلا بعناية منه، يزج العبد زجة يقطع به الحجب الظلمانية والنورانية التي فيها مواقف العلماء... فلا يشكل عليه دقيق، ولا يعيبه خفي بما أحبه الله**»[٩٢].

كان مسلك أبي الحسن الحرالي فهم المتشابه مسلك أهل التحقيق بالسلوك الذين فرغوا قلوبهم من الفكر والنظر، وجلسوا مع الحق بالذكر على بساط الأدب والمراقبة والحضور والتهيؤ لقبول ما يرد عليهم منه –تعالى–، حتى يكون الحق –تعالى– يتولَّى تعليمهم على الكشف والتحقيق لما سمعوه يقول: ﴿**وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ**﴾[٩٣]، ويقول: ﴿**إِنْ تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً**﴾[٩٤]، و﴿**وَقُل ربِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[٩٥]، فعندما توجهت قلوبهم وهممهم إلى الله ولجأت إليه وألقت عنها ما استمسك به الغير من دعوى البحث والنظر ونتائج العقول، كانت عقولهم سليمة وقلوبهم مطهرة فارغة، فعندما كان منهم هذا الاستعداد تجلى الحق لهم معلِّماً، فأطلعتهم تلك المشاهدة على معاني هذه الأخبار والكلمات[٩٦].

ومن معاني تلك الأخبار والكلمات ما ذكره الإمام الحرالي عند تفسير الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[٩٧]، فقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن معنى ﴿**مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ**﴾؛ أي أنه حرام يعذبهم الله عليه بالنار، فسمى ما أكلوه من الرشاء ناراً؛ لأنه يؤديهم إلى النار[٩٨]. لكن الإمام الحرالي يبصر معنى آخر. إنهم يأكلون النار حقيقة، ولا يرى ذلك سبباً كما هو مذهب المفسرين. قال رحمه الله: «**إلا النار كما أحاط علمه سبحانه وتعالى بالغيب أن ذلك على الحقيقة، وبصره لعيون أهل الكشف، الذين يرون العواقب في الأوائل، والغيب في الشهادة، وفي ذكره بصيغة الحصر نفي لتأويل المتأول بكونه سبباً، وصرفه له إلى وجه التحقيق الذي يناله الكشف؛ ويقصر عنه الحس. فكانوا في ذلك كالحذر الذي يجعل يده في الماء الحار، ولا يحس به، فَيَشعر ذلك بموت حواس هؤلاء عن حال ما تناولوه**»[٩٩].

ويذكر الإمام الحرالي بصدد تفسير الآية الكريمة ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[١٠٠]، يذكر: **أن قوله عز وجل ﴿هم﴾ فيه إشعار بإشراب العذاب بواطنهم، وبلاغه إلى أنفسهم بعذاب الغم والحزن واليأس، وغير ذلك من إحراق النار بواطنهم. وفيه إشعار بكونهم فيها في الوقت الحاضر من حيث لا يشعرون، «الذي يشرب في آنية الذهب إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»**[١٠١]. والنار أقرب إلى أحدهم من شراك نعله[١٠٢]، فهم فيها خالدون وإن لم يحسوا في الدنيا بحقيقتها، كما أن المهتدين في جنة في الدنيا، وإن لم يشاهدوا عيانها، فكل خالد فيما هو فيه في الدنيا غيباً، وفي الآخرة عياناً، وفي القبر عرضاً، ﴿**لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾[١٠٣]، ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾[١٠٤].

إن الفهم النابع من الكشف الصادق، قد يهدي، في نظر الإمام الحرالي، إلى مقاربة حقائق الألفاظ التي لا تصلح أن تختص بعالم الشهادة من دون ما وراء ذلك من غيب عالم الملكوت. وإنما كان لبس الخطاب على المقتصرين بحقائق الألفاظ على مسحوساتهم.

وإن المحقق العارف بما تقتضيه الحضرة الإلهية من التقديس والتنزيه ونفي المماثلة والتشبيه لا يحجبه ما نطقت به الآيات والأخبار، في حق الحق تعالى من أدوات التقييد بالزمان والجهة والمكان؛ وقد تقرر بالبرهان العقلي خلقه الأزمان، والأمكنة، والجهات، والألفاظ، والحروف، والأدوات، والمتكلم بها، والمخاطبين من المحدثات، كل ذلك خلق الله

تعالى فيعرف المحقق قطعاً أنها مصروفة إلى غير الوجه الذي يعطيك التشبيه والتمثيل، وأن الحقيقة لا تقبل ذلك أصلاً[١٠٥].

من ذلك، مثلاً، الاستواء الذي اختلف في فهمه المفسرون وحارت في معرفة كنهه عقول المتكلمين، يفسره الإمام الحرالي وفق فهمه للألفاظ المختصة بغيب عالم الملكوت. فيبين عند الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١٠٦]. أن القرآن «**أعلى الخطاب بذكر الاستواء إلى السماء الذي هو موضع التخوف لهم (أي: العرب)، لنزول المخوفات منه عليهم، فقيل لهم: هذا المحل الذي تخافون منه استوى إليه، ومجرى لفظ الاستواء في الرتبة والمكان أحق بمعناه من موقعه في المكان والشهادة؛ وبالجملة فالأحق بمجرى الكلم وقوعها نبأً عن الأول الحق، ثم وقوعها نبأ عما في أمره وملكوته، ثم وقوعها نبأ عما في ملكه وإشهاده؛ فلذلك حقيقة اللفظ لا تصلح أن تختص بالمحسوسات البادية في الملك دون الحقائق التي من ورائها من عالم الملكوت، وما به ظهر الملك والملكوت من نبأ الله عن نفسه من الاستواء ونحوه، ونَبَأُ الله عن نفسه أحق حقيقة، فليس تستحق الظواهر حقائق الألفاظ على بواطنها، بل كانت البواطن أحق باستحقاق الألفاظ، وبذلك يندفع كثير من لبس الخطاب على المقتصرين بحقائق الألفاظ على محسوساتهم**»[١٠٧].

ويعتقد أبو الحسن الحرالي: «أن أكثر طالبي الكيف في أمر الله وتجلياته، إنما يطلبونه عن وهن في إيمانهم. ومن طلب لتثبيت الإيمان، مع أن في ما دون الكيف من الآيات غيته، لم ينتفع بالآية في إيمانه؛ لأن كفايته في ما دونه، ولم يعل لليقين لنقص إيمانه عن تمام حده، فإذا تم الإيمان بحكم آياته التي في موجود حكمة الله في الدنيا بيناته، ترتب عليه برؤية ملكوت مشهود الدنيا رتبة اليقين، كما وجد تجربته أهل الكشف من الصادقين في أمر الله، حيث أورث لهم اليقين، ومتى شاركهم في أمر من رؤية الكشف أو الكرامات ضعيف الإيمان طلب فيه تأويلاً، وربما كان عليه فتنة تنقصه مما كان عنده من حظ من إيمانه، حتى ربما داخله نفاق لا ينفك منه إلا أن يستنقذه الله»[١٠٨].

إن الفهم الذي كان ينهال على قلب أبي الحسن حين تدبره كتاب الله، فيدونه في تفسيره، لعل الله ينفع به، هو فهم يرتاح إليه الوجدان، ويجد نورُ العقل بردَ اليقين فيه. ومهما خالف فيه المخالف، فهو أفضل بكثير من تلك التأويلات التي فرَّقت الأمة، وتركت آثارها السيئة على وحدة فكرها وعقيدتها.

ولاشك في أن الإمام الحرالي كان، وكما يبدو من تراثه التفسيري، يأخذ بالفهوم التي يجليها الكشف والإلهام في حدود الموافقة مع الكتاب والسنة. إن الكشف في منهج الحرالي الصوفي يعني التعمق في الفهم، لينتهي إلى كمال التحقق بمعاني القرآن، وحسن التخلق بأحكامه وآدابه.

إيحاء اللفظ الاعتباري

وقد وجد الإمام الحرالي في عبارات القرآن، وبخاصة في قصصه وأمثاله رموزاً وإشارات للاعتبار والتنبيه. والمعاني الإيحائية الاعتبارية التي كان أبو الحسن يستنبطها من آي القرآن واردة -كما سنرى- في سياق من التقيد والاستعمال اللغوي، مستوحاة من أدلة نقلية، والشواهد على ذلك من تفسيره أكثر من أن تحصى.

من ذلك، مثلاً، أن اليهود ملعونون كما جاء في التنزيل ﴿**وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾[١٠٩]، ومعنى اللعن ههنا، حسب المفسرين، أبعدهم الله من رحمته، وقيل: من توفيقه وهدايته، وقيل: من كل خير وهذا عام[١١٠]، ولكن الإمام الحرالي يلمح معنى لطيفاً فاللعن عنده هو «**إبعاد في المعنى والمكنة والمكان، إلى أن يصير الملعون بمنزلة في أسفل القامة، يلاقى به ضرر الموطىء**»[١١١].

والنهر المبتلى به جند طالوت، والغَرْفَة التي اغتُرِفَت، والمغترفون على تفاوت في اغترافهم، ثم إفراد اليد بالذكر، كل أولئك يوحي في ما يوحي بدلالات وإشارات كثيرة. فلنقرأ بتمعُّنٍ ما قاله أبو الحسن في تفسير الآية الكريمة ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[١١٢].

قال الحرالي: «﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ**﴾، وهو جمع جند، وهم أتباع يكونون نجدة للمستتبع ﴿**قال**﴾، أي ملكهم ﴿**إن الله**﴾ أي الذي لا أعظم منه، وأنتم خارجون في مرضاته ﴿**مبتليكم بنهر**﴾ من الماء الذي جعله، سبحانه وتعالى، حياة لكل شيء فضربه الله مثلاً للدنيا التي من ركن إليها ذلك، ومن صرف عنه عز، فأظهر الله على لسانه من أنبأ به نبيهم في قوله ﴿**وزاده بسطةً في العلم**﴾. ﴿**إلا من اغترف غرفة بيده**﴾ ففي قراءة فتح الغين إعراباً عن معنى إفرادها آخذة ما أخذت، من قليل أو كثير، وفي الضم إعلان بملئها، والغرف بالفتح الأخذ بكلية اليد، والغرفة الواحدة منه، وبالضم اسم ما حوته الغرفة. فكان

من المغترفين من استوفى الغرفة، ومنهم من لم يستوف. فكان فيه إيذان بتصنيفهم ثلاثة أصناف: من لم يطعمه البتة، وأولئك الذين ثبتوا وظنوا أنهم ملاقو الله. ومن شرب منهم، وأولئك الذين افتتنوا وانقطعوا عن الجهاد في سبيل الله. ومن اغترف غرفته، وهم الذين ثبتوا وتزلزلوا حتى ثبتهم الذين لم يطعموا.

«ولما كان قصص بني إسرائيل مثلاً لهذه الأمة، كان مبتلى هذه الأمة بالنهر ابتلاءهم بنهر الدنيا الجاري خلالها، فكانت جيوشهم بحكم هذا الإيحاء الاعتباري إذا مروا بنهر أموال الناس، وبلادهم، وزروعهم، وأقطارهم في سبيلهم إلى غزوهم، فمن أصاب من أموال الناس، ما لم ينله الإذن من الله انقطع عن ذلك الجيش، ولو حضره، فما كان في بني اسرائيل عياناً يكون وقوعه في هذه الأمة استبصاراً؛ سترة لها وفضيحة لأولئك، ومن لم يصب منها شيئاً، كان أهل ثبت ذلك الجيش الثابت المثبت. قيل لعلي–رضي الله عنه– يا أمير المؤمنين، ما بال فرسك لم يَكْبُ بك قط؟ قال: ما وطئت به زرع مسلم قط. ومن أصاب ماله فيه ضرورة من منزل ينزله، أو غلبة عادةً تقع منه، وبوده أن لا تقع، فهؤلاء يقبلون التثبيت من الذين تورعوا كل الورع. فملاك هذا الدين الزهد في القلب، والورع في التناول باليد، قال(ص): «**إنما تنصرون بضعفائكم**»(١١٣).

وفي إلاحة هذا التمثيل والاعتبار أن أعظم الجيوش جيش يكون فيه من أهل الورع بعدد الثابتين من أصحاب طالوت، الذين بعددهم كان أصحاب رسول الله(ص)، يوم بدر، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، عدد المرسلين من كثرة عدد النبيئين.

قال الحرالي: «**وفي إفراد اليد إيذان بأنها غرفة اليد اليمنى؛ لأنها اليد الخاصة للتعريف، ففي اعتباره أن الآخذ من الدنيا إنما يكون بيد لا بيدين، لاشتمال اليدين على جانبي الخير والشر**»(١١٤).

لعل هذا النموذج، وقد آثرت نقله برمته، خير ما يوضح مفهوم الاعتبار في منهج أبي الحسن الحرالي، فليس الاعتبار في منهجه مفهوماً مرسلاً من أي قيد لغوي أو شرعي، ينتقل فيه من معنى ظاهر إلى معنى جاهز يقصر معنى النص عليه، ويروم رده إليه. لم يكن عند أبي الحسن مذهب عقلي مستور، ولا عقيدة باطنية يداري عنهما، كان يرغب في أن يفهم القرآن فهماً لا يخرج عما يمكن أن يلمح إليه اللفظ القرآني، إلماحاً يعضده شاهد من النقل، أو يسنده مقتضى لغوي.

لقد علق الإمام **القرطبي** على الفهم الاعتباري الذي ذكره الحرالي في الآية الآنفة قائلاً:

«**ما أحسن هذا لولا ما فيه من التحريف في التأويل والخروج عن الظاهر لكن معناه صحيح من غير هذا**»[١١٥]. وأحسب أن **أبا الحسن الحرالي** في بيانه الآية المذكورة، وفي تفسيره عامة، ما خرج عن الظاهر، وما تعسف التأويل، إنه يقرر المعنى الظاهر. فالنهر المبتلى به بني إسرائيل، وفي الآية الكريمة نهر حقيقي، «**من الماء الذي جعله سبحانه وتعالى حياة كل شيء**»، ولكنه بالنسبة لهذه الأمة يرمز إلى نهر الدنيا، نهر الأموال، ونهر المصالح، ونهر الشهوات والملذات، هي أنهر تتكاثر وتتجدد كلما ابتعدت الأمة عن الاعتبار والاستبصار بأخبار الأمم السابقة. فما كان في بني إسرائيل وغيرهم عياناً يكون وقوعه في هذه الأمة استبصاراً، سترة لها وفضيحة لأولئك، كما قال **الحرالي**، والله أعلم.

إن المعاني الإيحائية الاعتبارية التي كان **أبو الحسن الحرالي** يستنبطها من آي القرآن، هي معان واردة –كما لاحظنا في النماذج الآنفة– في سياق من التقيد اللغوي، مستوحاة من أدلة نقلية. وقد بالغ الإمام **الذهبي** في وصفه تفسير الحرالي بأنه «**عمل تفسيراً عجيباً ملأه باحتمالات لا يحتملها الخط العربي أصلا**»[١١٦] فهو حكم يخالف ما تشهد به نصوص تفسير الحرالي المتوفرة، فلم أر فيه من معنى سوى أن يكون صاحبه ممن ينفون الفهم الإشاري للقرآن؛ أو يكون قد اطلع على نصوص أخرى لم تصلنا.

نعم، هناك فهوم في تفسير **الحرالي** تبدو غريبة وهي قليلة[١١٧]، ولعلها مما لا يطالعها غير أهل الفهم والإيقان. وقد كان العلامة **مرتضى الزبيدي** دقيقاً في وصفه تفسير الحرالي حين قال: «**وتفسيره غريب مشحون بالفوائد، نقل منه البرهان البقاعي في مناسباته**»[١١٨].

وأحسب أن مراد الزبيدي بالغرابة ههنا أنه جاء على نمط من التفسير غير معهود، وكفى تفسير الحرالي فضلاً أن يكون عمدة برهان الدين البقاعي في تفسيره «**نظم الدرر في تناسب الآي والسور**».

الفهم في منهج الحرالي هو ثمرة تزكية وترَقٍّ في مقامات الإيمان، وتأمل في نظم القرآن ونسقه، وعلى الجملة، إنه فهم لا ينبثق من التأملات العقلية، وليس من نوع التفسير الصوفي الإشراقي فالحرالي من متصوفة المغاربة الذين «**ربطوا موقفهم نهائياً بتصوف أهل السنة والجماعة، وذكروا استمدادهم المباشر من الكتاب والسنة، وكتاب قوت القلوب، وتصوف الغزالي**»[١١٩].

لقد كان منحى الإمام الحرالي في التصوف والتفسير تعبيرا صريحاً عن روح عصره،

عصر الموحدين(٥٢٦هـ/٦٦٧هـ)، الذي كان يطبعه محاربة التصوف الإشراقي «**الذي لن يزيد بمعرفته الإشراقية التي تعز عن الضبط، أو بتمييزه بين الظاهر والباطن، وإغراقه في التأويل الرمزي، وحمل الألفاظ مالا تحتمل؛ إلا فرقة وتهديداً للوحدة [التي كانت تنشدها الدولة الموحدية] وخروجاً عن المعقول والمنقول**»[١٢٠].

الفهم عند أبي الحسن الحرالي له قوانينه... يعرفها من عرفها ويذوقها من كان ذا قلب مشرق بنور الله. فيدرك من حقائق معاني القرآن ما لايدرك، لو قصر فهمه على ظاهر العقل؛ إذ عيان القلب أتم من العلم المأخوذ بفكر أو دليل أو تأويل.

«**وإنما ينبني يقين العيان على تحقيق الإيمان، ليصح الترقي منه إلى رتبة الإيقان**»[١٢١]، الذي به ينال فهم القرآن إفصاحاً وإفهاماً.

ومن هنا، كان موقف الإمام الحرالي من التأويل المفضي إلى الاشتغال بما لا يعني من أمر الله لنقص عن حد رتبة الإيمان والرسوخ في العلم.

من صفا قلبه دق فهمه، معادلة يُلمس آثارها في تفسير الإمام الحرالي. إن ما قدمه هذا المفسر الرباني الجليل من فهوم وإشارات لهو -لعمري- أفضل ما تطفح به كتب التفسير من إسرائيليات شنيعة باطلة، ومن روايات ضعيفة وموضوعة، ومن تطويلات وفضولات تبعد عن فهم القرآن وتسيء إلى جماله وجلاله.

وأكبر الظن أن من قرأ بإمعان تراث الإمام الحرالي في التفسير، متجرداً من الأحكام المسبقة، والعداء والإقصاء المهيمن على ثقافتنا تجاه التصوف عامة لأسباب مذهبية واستشراقية، فإنه يتبين، ولاشك القيمة الرفيعة، والمنزلة العالية، التي يحتلها هذا التراث التفسيري بين تفاسير أو قل إشارات أهل التصوف.

إنه تفسير يشدنا إلى القرآن ببعد آخر في الفهم، بعد تذوُّق أسرار عباراته، وإيحاءات ألفاظه، وتلمس الطريق الموصل إلى رفع عجز الوقفة عن المتشابه في غير ما شطح أو غموض أو رمز مما اكتنف تفاسير صوفية أخرى. والله تعالى أعلم.

الهوامش:

(١) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم التجيبي المراكشي، الأندلسي، المرسي، الحرالي، (نسبةً إلى حرالة قرية قرب مرسية). عاش في أيام الدولة الموحدية. وولد بمدينة مراكش. وبها نشأ ودرس على جماعة من العلماء. وكانت مراكش آنذاك العاصمة العلمية للغرب الإسلامي كله. لقي جملة من الفضلاء شرقاً وغرباً، إذ خرج إلى الأندلس وأخذ بها عن أبي الحسن بن خروف وابن القطان وابن الكتاني، وحج فأخذ عن أبي عبد الله محمد بن عمر القرطبي إمام الحرم الشريف قوانين فهم القرآن. (ذكر ذلك في مقدمة «مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل»). ودخل مصر فأقام ببلبيس مدة، ثم سكن طرابلس، وانتهى به المطاف بمدينة حماة ببلاد الشام حيث وافته المنية عام ٦٣٨هـ. وقد عرف الإمام الحرالي بالورع والصلاح والزهد. كان صوفيا له حزب من تأليفه يلازمه بعد صلاة الصبح، ولم يتخل عن ذلك حتى أثناء مرضه الذي مات به. كان يدرس أحد عشر علماً عارفاً متقناً للنحو والكلام والمنطق والطبيعات والإلهيات وأصول الدين وأصول الفقه وعلم التفسير، وكان -كماقيل- من العجائب في جودة الذهن واستخراج الحقائق. من مؤلفاته: أسماء النبي(ص)، شرح الشفا للقاضي عياض، شرح الموطأ وغيره. وقد نشر له أخيراً الأستاذ محمادي بن عبد السلام الخياطي تراثه في التفسير، المتضمن لأربعة أعمال: ١- مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل. ٢- عروة المفتاح. ٣- التوشية والتوفية للمفتاح (وهي عبارة عن ثلاث رسائل في التنظير لفهم القرآن، لا تتجاوز جميعها مائة وعشرين صفحة). ٤- نصوص من تفسير الحرالي المفقود من الفاتحة إلى قوله تعالى: ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾(آل عمران/ ٦١)، وهي نصوص جمعها الأستاذ الخياطي من تفسير برهان الدين البقاعي(ت: ٨٢٥هـ)، «نظم الدرر في تناسب الآي والسور».
ينظر ترجمته في: عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية للغبريني ١٠٤ وما بعدها. الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام للعباس بن إبراهيم ٩/ ١٠٠-١١١. توشيح الديباجة وحلية الابتهاج للقرافي ١٦٢-١٦٥. سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٣/ ٤٧، ميزان الاعتدل له أيضاً ج٣/ ١١٤. طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٩٢ نفح الطيب للمقري ٢/ ٣٩٢. تاج العروس للزبيدي ٧/ ٢٧٧. معلمة المغرب تأليف: الجمعية المغربية للتأليف والنشر ج١٠/ ٣٣٦٥-٣٣٦٤. حضارة الموحدين لمحمد المنوني ٣٣-٣٤.

(٢) **نصوص من تفسير الحرالي**، ضمن تراثه في التفسير. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٧ ص ٢٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٩.

(٤) بدر الدين القرافي: **توشيح الديباج وحلية الابتهاج**، تحقيق أحمد الشتيوي. دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٨٣، ص١٦٤. الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الإعلام ج ٩، ص١٠٤.

(٥) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، ١/ ٣٤٢ وما بعدها، دار الفكر، لبنان د.ت.

(٦) الحرالي: **مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل**، ص ٢٨ ضمن تراثه في التفسير.

(٧) المصدر نفسه، ص٢٥.

(٨) أبو نصر السراج الطوسي، اللمع: تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ص ١١٥. دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٦٠.

(٩) ينظر: محمد بن علي أبو طالب المكي، **قوت القلوب**، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٧، ج ١، ص٨٦، إحياء علوم الدين ج ١، ص٣٣٥.

(١٠) **مفتاح الباب**، ص ٢٨.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٨.

(١٢) **إحياء علوم الدين**، ج ١، ص٣٣٦.

(١٣) الحرالي، **عروة المفتاح**، ص ٩٢، ضمن تراثه في التفسير.
(١٤) نصوص من تفسيره، ص ٢٧٣.
(١٥) المصدر نفسه، ص ١٤٥.
(١٦) يقصد الإمام الحرالي بروح العقل لب العقل (ويعبر عنه ايضاً بالقلب) وهو كما عرفه «باطن العقل الذي شأنه أن يلحظ أمر الله في المشهودات، كما أن شأن ظاهر العقل، أن يلحظ الحقائق من المخلوقات» نصوص من تفسيره، ٣٣١ وينظر: ص ٢٠٧.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٦٦.
(١٨) المصدر نفسه، ٥١٠.
(١٩) **عروة المفتاح**، ص ٨٦.
(٢٠) نصوص من تفسيره، ص ٥٠٨.
(٢١) عروة المفتاح، ص ٥٨.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٧٨.
(٢٣) المصدر نفسه، ٥٨.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ٧٨.
(٢٥) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٥١٢.
(٢٦) عروة المفتاح، ٨١.
(٢٧) نصوص من تفسير الحرالي ٥١٢-٥١٣.
(٢٨) **عروة المفتاح**، ص ٨٠.
(٢٩) **مفتاح الباب المقفل**، ص ٢٧.
(٣٠) المصطلح الصوفي بين التجربة والتأويل: محمد مصطفى عزام، ص ٣٧، تصنيف وإخراج نداكوم للصحافة والطباعة، الرباط، ط ١، ٢٠٠٠.
(٣١) **مفتاح الباب**، ص ٣٣.
(٣٢) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٢٢.
(٣٣) ينظر: **مفتاح الباب**، ص ٣٧-٣٨.
(٣٤) سورة الأحزاب: الآية ٧٣.
(٣٥) سورة البقرة: الآية ٢٢٥.
(٣٦) **نصوص من تفسير الحرالي**، ٣٩٨.
(٣٧) ينظر: **مفتاح الباب**، ٣٩-٤٠.
(٣٨) سورة الصمد: الآية ٢.
(٣٩) سورة الإخلاص: الآية ١.
(٤٠) سورة البقرة: الآية ١١٠.
(٤١) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٢٥٢.
(٤٢) **مفتاح الباب**، ص ٤١-٤٢.
(٤٣) لا أصل له، ولا يعرف مرفوعاً ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة الألباني، ج ١، ص٩٦ رقم٦٦.
(٤٤) سورة الأعلى: الآية ١.
(٤٥) سورة الكهف: الآية ٨١.
(٤٦) سورة البقرة: الآية ٢١.
(٤٧) سورة البقرة: الآية ٢٧٤.
(٤٨) **مفتاح الباب**، ص ٣١.

(٤٩) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٤٠٤.
(٥٠) المصدر نفسه، ص ٥١٦، وينظر: ص ٣٣١.
(٥١) سورة البقرة: الآية ١٢١.
(٥٢) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٢٥٩.
(٥٣) سورة آل عمران: الآية ١٨.
(٥٤) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٥٣٧.
(٥٥) **مفتاح الباب المقفل**، ص ٣١.
(٥٦) سورة النساء: الآية ٧٨.
(٥٧) الشاطبي، **الموافقات**، تحقيق عبد الله دراز، ج٣، ص٣٨٢.
(٥٨) مفتاح الباب، ٢٦.
(٥٩) نصوص من تفسير الحرالي، ٥١٦.
(٦٠) سورة البقرة، الآية ٢٦٩، ويراجع: مفتاح الباب، ٢٧.
(٦١) نصوص من تفسير الحرالي، ٢٦٤.
(٦٢) سورة البقرة: الآية ١٥١.
(٦٣) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٤٦٩.
(٦٤) سورة البقرة،
(٦٥) نفسه، ٢٧٧-٢٧٨.
(٦٦) **مفتاح الباب**، ٣٤.
(٦٧) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٣٤٨.
(٦٨) المصدر نفسه، ص ٣١٦.
(٦٩) ينظر: **مفتاح الباب**، ص ٣٤-٣٥، **ونصوص من تفسير الحرالي**، ص ١٢٨ و ٢٩٢.
(٧٠) مفتاح الباب، ص ٣٥.
(٧١) سورة البقرة: الآية ١٠٨.
(٧٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٥.
(٧٣) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٢٥١.
(٧٤) سورة البقرة: الآية ١٨٣.
(٧٥) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٣٣٣-٣٣٤.
(٧٦) مفتاح الباب، ص ٤٥.
(٧٧) المصدر نفسه، ص ٤٥-٤٦.
(٧٨) سورة النحل: الآية ١٢.
(٧٩) سورة النحل: الآيتان ١٠-١١.
(٨٠) **مفتاح الباب**، ص ٤٣.
(٨١) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص٤٢٠.
(٨٢) المصدر نفسه، ص ٥٤٦.
(٨٣) سورة البقرة: الآية ١٤٤.
(٨٤) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٢٧١.
(٨٥) سورة البقرة: الآية ١١٩.
(٨٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٨.
(٨٧) **التوشية والتوفية**، ص ١٢٦-١٢٧.
(٨٨) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ١٤٠.
(٩٠) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٥١٧.
(٩١) المصدر نفسه، ص٤٤٢.
(٩٢) المصدر نفسه، ص ٥١٢.
(٩٣) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.
(٩٤) سورة الأنفال: الآية ٢٩.
(٩٥) سورة الكهف: الآية ٦٤.
(٩٦) محمد ابراهيم محمد سالم، **تأييد الصوفية في المجموعة الحاتمية**،، مطبعة حمادة الحديثة بقويسنا، ١٩٩٣، ص ١٢٠، نقلاً عن الفتوحات المكية لابن عربي الباب الثاني.
(٩٧) سورة البقرة: الآية ١٧٤.
(٩٨) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢، تحقيق د. محمد ابراهيم الحفناوي دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٤، ص٢٣٩.
(٩٩) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص٣٢٥، وينظر: عروة المفتاح ص٩٥.
(١٠٠) سورة البقرة: الآية ٣٩.
(١٠١) أخرجه مالك في الموطأ باب النهي عن الشراب في آنية الفضة ج٢، ص٩٢٥، والبخاري في كتاب الأشربة، باب آنية الفضة.
(١٠٢) يشير الحرالي إلى حديث البخاري ج ٧/ ١٨٦، «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك**».
(١٠٣) سورة التكاثر: الآيتان ٦-٧.
(١٠٤) سورة غافر: الآية ٤٦. راجع: **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٢٠٢.
(١٠٥) **تأييد الصوفية**، ص ١١٩.
(١٠٦) سورة البقرة: الآية ٢٩.
(١٠٧) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص١٨٤.
(١٠٨) المصدر نفسه، ص ٤٥٢.
(١٠٩) سورة البقرة: الآية ٨٨.
(١١٠) **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢، ص٣٠.
(١١١) **نصوص من تفسير الحرالي**، ص ٢٣٩.
(١١٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.
(١١٣) البخاري، ج٣، ص٢٢٥.
(١١٤) المصدر نفسه، ص ٤٣١-٤٣٣.
(١١٥) **الجامع لأحكام القرآن**، ج٣، ص٢٤٨.
(١١٦) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٩٨٦، ج٢٣، ص٤٧.
(١١٧) ينظر: **نصوص من تفسير الحرالي** -مثلاً- عند قوله عز وجل: ﴿**وسع كرسيه السماوات والأرض**﴾(البقرة/ ٢٥٤)، ص ٤٤٣-٤٤٤.
(١١٨) **تاج العروس من جواهر القاموس**: محمد مرتضى الزبيدي، ج٧، ص ٢٧٧، دار الفكر، بيروت، د.ت.
(١١٩) محمد علي أبو ريان، **أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي**، د. ص ٦.
(١٢٠) عبد المجيد الصغير، **تجليات الفكر المغربي**، شركة النشر والتوزيع، المدراس، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢، ص ١٦٦.
(١٢١) **نصوص من التفسير الحرالي**، ص٤٣٥.